جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

استدعاء التراث في الرواية التاريخية السعودية
رواية "دموع الرمل"
أنموذجاً لشتيوي الغيثي
دراسة إنشائية

إعداد

د. محمد بن عبدالعزيز الفيصل

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم الأدب والبلاغة والنقد في كلية اللغة العربية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

استدعاء التراث في الرواية التاريخية السعودية رواية "دموع الرمل" أنموذجًا لشتيوي الغيثي دراسة إنشائية

محمد بن عبدالعزيز الفيصل

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم الأدب والبلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

البريد الالكتروني: Maalfaisal@imamu.edu.sa

الملخص :

يدرس هذا البحث استدعاء التراث في الرواية التاريخية السعودية، عبر دراسته لرواية "دموع الرمل" لشتيوي الغيثي؛ ليلقي الضوء على علاقة التراث بالرواية التاريخية، وليبحث في استدعاء الشخصيات التاريخية في رواية دموع الرمل، وآليات توظيف التاريخ في الحدث السردي، إلى جانب دراسة المفارقة الزمنية في بناء الحدث التاريخي في الرواية، ليكشف البحث وفق آليات المنهج الإنشائي عن شكلٍ من أشكال استدعاء التراث في الرواية التاريخية السعودية.

الكلمات المفتاحية: التراث، استدعاء، التاريخية، التراث، إنشائية.

The recall of heritage in the Saudi historical novel "Tears of Sand" as a model, by Shtewe Ghaithi
Constructive Study

Mohammed bin Abdulaziz Alfaisal
1445AH, 2024AD
Maalfaisal@imamu.edu.saAssociate Professor of Arabic literature and criticism, department of literature, collage of Arabic language, Al Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

abstract:
This research examines the invocation of heritage in the Saudi historical novel, through the study of the novel of "Tears of Sand" by Shtewe Ghaithi; To highlight the bound of heritage and the historical fiction, to explore the invocation of historical figures in the novel of "Tears of Sand", and the mechanisms of using history in the narrative event, as well as to study the temporal paradox in the construction of the historical event in the novel, to reveal a form of invocation of heritage in the Saudi historical fiction.

Keywords: heritage, recall, historical, heritage, construction.

المقدمة:

يُشكّل التراث عنصرًا مؤثرًا في الأجناس الأدبية؛ ليفتح بكل ما يحمله من مؤثرات مباشرة وغير مباشرة نافذة على التاريخ بكل مكوناته التي يختلف مستوى تأثيرها في الجنس الأدبي إيجابًا وسلبًا، ليظل التراث قاعدة صلبة ينطلق منها النص الأدبي نحو آفاق الإبداع والتميز، فما يملكه من مخزون ثقافي ومعرفي؛ يسهم في دعم النص السردي ليحلّق في فضاءات الإبداع حتى يصل إلى سماء الشِّعرية.

تبرز العلاقة بين التراث والرواية بوضوح في ميدان تجسيد التاريخ، وتكثيف حضوره في أعماق السرد؛ ليتسلل هذا التفاعل الملفت بشكل تدريجي إلى الرواية ليكون مدخلاً لاستلهام التاريخ، واستثمار أبعاده الماضية التي أحدثت تغييرًا في ميدانٍ محدّد تُبعث فيه مواطن الإبداع مرة أخرى، وبذلك تُفعّل نقاط القوة عبر عدة محاور يختارها منشئ النص، ويعيد حضورها ولكن بطريقة أخرى تتناسب مع نصه السردي.

ارتبطت الرواية التاريخية في كل مراحلها بالتراث، حيث استطاعت أن توظفه بطريقة تختلف عن حضوره التقليدي في مختلف الأجناس الأدبية الأخرى، فلا يمكن النظر إليه بمعزل عن المؤثرات التاريخية التي تحيط بهذه النصوص العتيقة، والتي تتطلب معالجتها إلمامًا بهذه الأحداث التاريخية، وإدراكًا بالوسائل والطرق التي تُمكن منشئ النص من التعاطي معها بالطريقة المناسبة؛ وبالتالي توظيف الكاتب للنص التاريخي توظيفًا إيجابيًا في النص السردي، مما يمنح هذا النمط من النصوص "خصوصية الماضي الذي تتعامل معه، فالرواية التاريخية تحاول أن تصور عالما فعليًا مأهولاً تمامًا مثل عالم الماضي الذي تمثله"[(١)].

(١) الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (دراسة في البنية السردية) ١٩٣٩م – ١٩٦٧م، الدكتور: حسن هندي سالم إسماعيل، الطبعة الأولى، الناشر: دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٥م، ص٢٠.

تُمثل الرواية التاريخية تحولاً مؤثرًا على صعيد هذا الجنس الأدبي، حيث ينقل منشئ النص أحداث التاريخ إلى فضاء السرد، وهنا تكمن أهمية الموضوع الذي يعيد إنتاج التاريخ ولكن بطريقة غير تقليدية تجدد نظرتنا إلى هذا الزمن المنصرم، وتعيد إنتاج أحداثه لتضيف إليها عنصر الإثارة والتشويق، ليكون ذلك طريقًا إلى ميدان التجديد على صعيد هذا الجنس الأدبي.

إن ما دفعني لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه هو زيادة الاهتمام بهذا النوع من الرواية، إلى جانب صدور أعمال أدبية زاحمت أنماط الرواية الأخرى التي اعتاد المتلقون على التعاطي معها، إلا أن هذا النمط من الرواية كان حضوره مختلفًا، رغم قلة النتاج في هذا الميدان، وذلك يعود لأسباب كثيرة؛ يتسنَّمها القدرة على كتابة هذا النوع من الروايات التي تتطلب إدراكًا للأبعاد التاريخية، وإلمامًا بطريقة توظيفها، ودمجها مع العملية الإبداعية في النص السردي، وبعد البحث والاستقراء والتأكد من أن هذا الموضوع لم يُدرس، اخترت رواية: (دموع الرمل)، لشتيوي الغيثي، وهو كاتب وشاعر وأكاديمي سعودي، صدرت روايته بدعم ومتابعة من دارة الملك عبدالعزيز ضمن برنامجها: (تاريخنا قصة)، حيث تروي هذه الرواية مرحلة مهمة من تاريخ وطننا، وفيها وظّف الكاتب التاريخ بطريقة تبرز أهمية الحدث التراثي، وتكشف صلته بالواقع، وحضوره على الجانب الإبداعي.

وقد اخترت المنهج الإنشائي، ليكون منهج الدراسة في هذا البحث، وسأقف من خلاله على كيفية صنع النص، وطرق إنشائه، وقواعد بنائه والبحث في جمالياته؛ لأوظف آليات تحليل الخطاب الأدبي في هذا البحث الذي اقتضت طبيعته أن أقسّمه إلى مقدمةٍ، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع، حيث سأكشف في التمهيد عن علاقة التراث بالرواية التاريخية، وسأدرس في المبحث الأول: استدعاء الشخصيات التاريخية في مدونة البحث، لأدرس في المبحث الثاني: توظيف التاريخ في الحدث السردي، لأختم البحث بالمبحث الثالث الذي سأتناول فيه: دراسة المفارقة الزمنية في بناء الحدث التاريخي، وخاتمة ألخص فيها أبرز نتائج الدراسة، وثبتٍ للمصادر والمراجع، التي استعنت بها في كتابة البحث.

التمهيد: علاقة التراث بالرواية التاريخية:

قبل الحديث عن صلة التراث بالرواية التاريخية، وشكل هذه العلاقة بين هذا الجنس الأدبي وهذا المكوّن المتنوع بكل ما يحمله من دلالات يتباين مستوى تأثيرها وأثرها، وطريقة تحركها داخل السرد، لابد أن أشير إلى الرواية التاريخية التي بدأ حضورها يتصاعد تدريجيًا في الساحة النقدية، التي احتضنت مؤخرًا أشكالاً أدبية جديدة تتنافس من أجل الفوز بألباب المتلقين؛ الذين تتفاوت مستويات تفاعلهم مع هذه الأنماط الأدبية.

من يتابع الساحة الروائية سيلحظ حضورًا لافتًا للرواية التاريخية، وربما يقرؤه بعض المهتمين بأنه عودة لهذا الشكل الأدبي الذي ينتمي من الناحية الأجناسية إلى الرواية، التي بزغت شمسها مطلع القرن التاسع عشر بعد سقوط نابليون؛ فكانت الانطلاقة برواية: (سكوت ويفرلي)، مع وجود روايات قبل هذا التاريخ إلا أن هذه الرواية تعد البداية الحقيقية للرواية التاريخية [١]، أما على الصعيد المحلي فقد تأخر ظهور الرواية التاريخية في الأدب السعودي، حيث شهد العام ١٣٨٥هـ، ظهور أول رواية تاريخية، فكانت الانطلاقة الأولى في هذا الميدان[٢].

إن الرواية التاريخية بكل دلالاتها، وما تحمله من أبعاد معرفية وتراثية عميقة "تُقدم أحداثًا تاريخية وأشخاصًا ينتمون إلى التاريخ مما يجعل منهم صورًا حية عن الواقع الذي عاشوه وأثروا فيه، ذلك أن الرواية التاريخية تعمل على إبراز

(١) انظر: الرواية التاريخية، جورج لوكاش، ترجمة: الدكتور: صالح جواد الكاضم، الطبعة الثانية، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام – دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص١١.

(٢) انظر: الرواية التاريخية في الأدب العربي السعودي الحديث، الأستاذ الدكتور: علي بن محمد الحمود، الطبعة الأولى، (د.ن)، الرياض، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص٩.

عبقرية الأشخاص التاريخيين، الذين تحولهم إلى شخصيات روائية، من غير أن يقلل ذلك من مكانتهم كملوك وعظماء وعباقرة"[١]، فالتراث عنصرٌ مهم، ومُكون فعّال تقوم عليه الرواية التاريخية التي لا يمكن أن يُنظر إليها إلا من خلال هذه النافذة التي تعطي هذا العنصر الأهمية التي يستحقها في هذا المقام؛ وبهذا نستطيع أن نفهم العلاقة الوثيقة بين الرواية التاريخية والتراث، وهذا ما يجعل "هذه العلاقة علاقة معقدة غاية التعقيد"[٢]، والمعيار الذي يمكن أن يؤثر على هذه العلاقة الجدلية بينهما هو التطور التاريخي.

يُمثل التراث مكونًا رئيسًا داخل كيان الرواية التاريخية التي تعتمد بشكل مباشر وغير مباشر على التراث في بنائها الدلالي والمعرفي، ولهذا فالعناصر المكونة للتراث متعددة وقابلة للتطوير والتحديث، وفقًا للرؤى التي تتعاطى مع هذا المفهوم الذي يُنظر له بطرق مختلفة تتعدد وفقًا للمنطلقات والدوافع التي تؤسس لمبدأ التعاطي مع التراث وفقًا للأُطر التي تؤسس لهذا المفهوم الذي يعكس "الموروث الثقافي والاجتماعي والمادي، المكتوب الشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي، الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب"[٣] .

تنطلق العلاقة بين التراث والرواية التاريخية، عبر محور مهم ومؤثر يقودنا إلى عملية الفهم والاستيعاب لكُنه العلاقة بين هذين القطبين اللذين تتجلى من

(١) الرواية العربية الجديدة تنويعات الشكل والخطاب، الدكتور: محمد عز الدين التازي، الطبعة الأولى، الناشر: وكالة الصحافة العربية، مصر، ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م، ص١٤٠.

(٢) الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (دراسة تطبيقية)، الدكتور: حلمي محمد القاعود، الطبعة الثانية، الناشر: العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٣١هـ /٢٠١٠م، ص٤٩٠.

(٣) توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، محمد رياض وتار، الطبعة الأولى، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص٢١.

خلالهما صلة تكاملية تنبثق من خلال عملية التواصل المعرفي بينهما، ولذا فإن هناك كثيرًا من النصوص السردية تقوم على مبدأ العلاقة مع التراث كما يرى ذلك سعيد يقطين الذي يقول: "كثيرة هي النصوص السردية العربية الحديثة التي تتشكل على قاعدة إحدى العلاقات التي تقيمها مع التراث السردي العربي القديم"(١)، ولا تقوم هذه العلاقة عنده إلا من خلال شكلين هما سببٌ لضبط أوجه هذه العلاقة المنطقية في كثير من جوانبها، فهي لا تنطلق إلا من خلال نوع سردي قديم ليكون شكلاً لهذه العلاقة، أو عبر حضور النوع القديم في الرواية وبالتالي يمكن أن يكون ذلك تجسيدًا كُلِّيًا لهذه العلاقة بين هذين القطبين.

إن العلاقة بين التراث والرواية التاريخية لا يمكن حصرها في شكل محدد، أو في إطار خاص لأنها تقوم على مبدأ التكامل بينها، وأزعم أن هذا النمط من الروايات التي أدرسها في هذا البحث وهي الرواية التاريخية؛ هو إحدى أشكال تطور العلاقة بين التراث وهذا الجنس الأدبي.

(١) الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، الأستاذ الدكتور: سعيد يقطين، الطبعة الأولى، الناشر: المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص٥.

المبحث الأول: استدعاء الشخصيات التاريخية:

عندما أستعرض جنس الرواية سأجد أن للشخصيات التاريخية حضورًا فيها، وتختلف أسباب حضور هذه الشخصيات التاريخية، إما لحاجة الحبكة إليها، أو لكون الأحداث تستلزم حضور هذه الشخصيات من أجل تعزيز فكرة معينة يطاردها الكاتب في السرد، وقد تكون هذه الرواية "تقوم على محور الشخص أو البطل الذي يحظى بالأضواء الروائية، ويخصه المؤلف بكل اهتمامه وجهده، ويمكن أن نضع (رواية الشخصية) في مقابل (الموقف أو الحدث)، حيث يكون التركيز على ما جرى من وقائع وأحداث"(١)، فتأثير الشخصية التاريخية يتباين من عمل روائي إلى آخر، ولكل عمل روائي ظروفه التي يحتكم إليها.

تُمثّل الشخصيات التاريخية في الرواية التاريخية قطبًا متينًا في النسيج السردي؛ فمن الصعب أن ينهض هذا النمط من الرواية دون أن تكون الشخصيات التاريخية فاعلة في ميدان السرد؛ لتكون دائرة مهامها في الرواية واسعة جدًا، وإذا نظرنا إلى مدونة الدراسة التي بين أيدينا وهي رواية: (دموع الرمل)، سنجد أن شتيوي الغيثي قد استدعى عددًا من الشخصيات التاريخية التي تحمل كل واحدة منها ثقلاً تاريخيًا يجعل المتلقي يحار من أي الزوايا ينظر إليها، وهذا سيزيد من مسؤولية منشئ النص في تشكيل هذه الشخصية، ومن ثَمَّ توجيهها بطريقة محددة تخدم الفكرة التي يطارها في فضاء السرد، وهنا تكمن مهارة منشئ النص في تكييف زخم هذه الشخصية لخدمة بناء الرواية، ومن أبرز هذه الشخصيات التاريخية التي حضرت في السرد: ابن سعود، وابن رشيد، وابن عجلان، وعنترة، والزير سالم، وأبوزيد الهلالي، والزناتي خليفة، ومحمد القاضي،

(١) الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (دراسة تطبيقية)، الدكتور: حلمي محمد القاعود، ص٣٠٢.

ونمر بن عدوان، وعبيد بن رشيد، وفيصل الدويش، وهذه الشخصيات التاريخية تتقاسم المدى التاريخي من الناحية الزمنية، فهناك شخصيات يفصلنا عنها عقود، بينما هناك شخصيات أخرى يحول بيننا وبينها قرون طويلة.

وما ينبغي أن نستوعبه في هذا الميدان أن حضور الشخصية التاريخية في الرواية التاريخية يختلف عن حضوره في الروايات الأخرى، حيث إن "الشخصية التاريخية هي دائمًا شخصية ثانوية من حيث الفعل في الرواية الكلاسيكية"(١).

لقد كان حضور الشخصيات التاريخية في رواية: (دموع الرمل)، وفق أنماط حددها منشئ النص برؤية معينة، سعى من خلالها إلى إكساب النص زخمًا تاريخيًا يخدم الهدف الذي يطلبه الغيثي، ومن خلال استعراضي لهذه الشخصيات ظهر لي أن وجودها في النص كان على ثلاثة أنماط الأول: استدعاء بالاسم، ويكون ذلك بـ"ذكر اسم الشخصية التاريخية في سياق السرد الروائي"(٢)، ويظهر ذلك في حضور الشخصيات: (عنترة بن شداد، الزير سالم، أبوزيد الهلالي، نمر بن عدوان، الزناتي خليفة، محمد القاضي)، وقد حضرت هذه الشخصيات في الرواية بالاسم؛ حيث استثمر منشئ النص زخم هذه الأسماء، وحضورها الكبير في ميدان التاريخ، ويتجلى ذلك على لسان الراوي الذي يقول: "حفظ أكثر من جزء عمّ على مدى أشهر بصعوبة بالغة، وعلّمه الشاعر حكاية عنترة وبطولاته، والزير سالم وثاراته، وأبوزيد الهلالي وتغريبة قومه وحروبهم الطويلة مع الزناتي خليفة، أعجبته القصائد الهلالية أكثر من القصائد العربية؛ لأنها كانت على لسانه، وحفظ قصيدة محمد القاضي في القهوة،

(١) سميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ترجمة سعيد بنكراد، تقديم: عبدالفتاح كيليطو، الطبعة الأولى، الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٩٢.

(٢) توظيف التراث في الرواية العربية، محمد رياض وتار، ص١١٤.

وقصيدة نمر بن عدوان في زوجته"[١].

وعبر هذا المحور تبرز نقطة مهمّة وهي دقة اختيار الغيثي لهذه الشخصيات، والأهم من ذلك توجيهها في النص بطريقة تخدم الموضوع المطروح، والفكرة التي يسعى خلفها الكاتب، فورودها بهذا الشكل لم يكن اعتباطيًا فهذه شخصيات تاريخية معروفة، وتمتلك كل واحدة منها كثافة دلالية تؤثر بشكل مباشر على المعنى وتوجهه، ولهذا جاءت هذه الشخصيات على لسان الشاعر الذي علّم ابن نويّر الأدب والتاريخ وهذا يكشف السبب الذي دفع منشئ النص لإيراد هذه الشخصيات وكيف أثرت هذه الأسماء في الرواية، وعزز حضورها ثقة الشخصية بنفسها، وكشفت مسار الرواية ونمطها العام، وهي السمة التي تتسم بها الرواية التاريخية؛ التي تفتح للمتلقين نافذة على التاريخ ولكنها نافذة تكتسي بالخيال.

ويبرز في الرواية نمط آخر من أنماط حضور الشخصيات التاريخية في السرد، وهو الاستدعاء بأقوال الشخصيات التاريخية، وهذا النمط سجل حضوره في ميدان السرد ولكنه أقلُّ حضورًا من النمط الأول، وهو حضور الشخصيات التاريخية بالاسم، إلا أن نمط هذا الحضور هو "الطريقة الشائعة، فكثيرًا ما عمد الروائيون إلى سرد أقوال الشخصيات التاريخية ولا سيما تلك الأقوال الشهيرة التي تحتل حيزًا كبيرًا في ثقافة القراء"[٢]، وهذا النمط رغم شيوعه في كثير من الأعمال السردية إلا أنه حضر بدرجة ثانوية في السرد، وذلك في أبيات الشاعر عبيد بن رشيد التي أوردها الراوي في السرد، وفق ما ورد في النص: "وحفظ قصيدة عبيد بن رشيد وصار يرددها في كل مكان:

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، الناشر: دار تشكيل، الرياض، ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م، ص١٠٢.

(٢) توظيف التراث في الرواية العربية، محمد رياض وتار، ص١١٤.

اضرب على الكايد لياصرت بحلان
وعلى الولي وصل الرشا وانقطاعه
إما تجي بعقود لولو ومرجان
وإلا بأخو مرّه يطيّر شعاعه

سعدت نوير بانشغال ولدهم بالعلوم، فزادت الشاعر عنترة من عندها مكافأة له على إشغال الفتى"[١].

بادر منشئ النص في هذا الموضع من الرواية إلى إكساب النص مَعانيَ ذات أبعاد عميقة، تجعل النَّصَّ السردي منفتحًا على آفاقٍ تاريخية وثقافية متشعبة، وتحمل إرهاصات اجتماعية مازال أثرها باقيًا في المجتمع، وهذه الأقوال هي الأبيات الشعرية التي ضمنها الغيثي النص، وهي التي تدفعه إلى "التحرر من إطار الجزئية والآنية إلى الاندماج في الكلي والمطلق"[٢]، ولا يخفى علينا أثر الشعر، والتأثير الذي يتركه في النص؛ خصوصًا إذا كان هناك شيء من عدم قناعة منشئ النص بمهمة الشخصية، حيث يعمد إلى زيادة زخمها عبر هذه الوسائل.

ولا يُغفل منشئ النص حضور الشخصيات التاريخية عن طريق الفعل وهو "ذكر الشخصية التاريخية من خلال فعل اشتهرت به"[٣]؛ ليكون هذا النمط من أنماط حضور الشخصيات التاريخية في النص هو الأكثر حضورًا ويبرز عبر حكاية الأحداث التي تمثل قطبًا متينًا في الرواية، ويظهر ذلك في الشخصيات: (ابن رشيد، وابن سعود، وفيصل الدويش)، التي حضرت بأفعالها حيث نقل منشئ النص أحداث حرب توحيد بلادنا التي خاضها الملك المؤسس عبدالعزيز

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٠٢،١٠٣.
(٢) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الدكتور: علي عشري زايد، الطبعة الأولى، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص١٧.
(٣) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الدكتور: علي عشري زايد، ص١١٤،١١٥.

بن عبدالرحمن الفيصل –رحمه الله–، ليذكر الأطراف الأخرى في هذه الحروب ومن أبرزهم: عبدالعزيز بن متعب بن رشيد، وفيصل الدويش، وابن عجلان، يقول الراوي ساردًا شيئًا من هذه الأحداث: "حكاية الستين رجلاً الذين قادهم إلى الرياض وقاتل ابن عجلان في قصر المصمك وقتله. أعلن الناس أن الحكم لله ثم لابن سعود"(١)، فالملك عبدالعزيز هو فارس هذه القصة وبطلها، وهو الذي قاد الفرسان لفتح الرياض، ويقول الراوي في موضع آخر: "صدم الناس كيف لرجل بتلك الشجاعة والبطولة أن يموت هكذا، وهو الذي انتصر في السابق على جيش الكويت في معركة الصريف"(٢)، ليذكر هنا أفعالاً اشتهر بها عبدالعزيز بن متعب بن رشيد، وهو انتصاره على ابن صباح في معركة الصريف، وهذان النصان يكشفان عن نمط حضور الشخصيات التاريخية في النص عن طريق أفعالها، وفي هذا المقام يحاول شتيوي الغيثي في هذا العمل السردي أن يستثمر الشخصيات البارزة في ميدان روايته التاريخية التي تستلزم حضور أحداث واقعية ممزوجة بأبعاد تاريخية ثابتة في أواصر التاريخ، وهنا تبرز مهارة منشئ النص في توظيف حضور هذه الشخصيات، والموازنة بين الخيال وواقع هذه الأحدث التاريخية ومهمّة هذه الشخصيات التاريخية فيها.

تمكن منشئ النص من توظيف الشخصيات التاريخية في روايته، عبر مزجها بأحداث الرواية، وتكثيف حضورها في ميدان السرد، وكان ذلك عبر ثلاثة أنماط: الأول: استدعاء الشخصية التاريخية بالاسم، والثاني: استدعاء الشخصية التاريخية عبر أقوالها، والثالث: استدعاء الشخصية التاريخية عبر أفعالها، وبهذا يتضح أن استدعاء هذه الشخصيات في ميدان السرد كان وفق قواعد التزم بها الغيثي ليتأكد من فعالية حضور هذه الشخصيات التاريخية في الرواية، وضمان تفاعلها مع الأحدث، ومع الشخصيات الأخرى؛ مما دعم حبكة النص، وقادها نحو الشِّعرية.

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص٩٧.

(٢) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص٩٧.

المبحث الثاني: توظيف التاريخ في الحدث السردي:

يَنفذ التاريخ إلى كُل الأجناس الأدبية، ويختلف مستوى حضوره في هذه الأجناس وفقًا للظروف التي تحكم هذا الجنس، ومدى إدراك الكاتب لأهمية هذا المكوّن الاجتماعي الذي يؤثر بشكل مباشر في بناء هذه الفنون ومعمارها، وتبرز في هذا المقام قدرة المبدع على توظيف التاريخ وتكييف النص على استيعاب أبعاده وأهدافه.

قد يحضر التاريخ في الشعر، أو السيرة، أو القصة، أو حتى الرواية، إلا أن هذا الحضور قد يكون على استحياء لأن هذا العنصر قد يحل ضيفًا على هذه الأجناس الأدبية، إلا أن الأمر مختلف تمامًا في الرواية التاريخية التي يكون التاريخ حاضرًا فيها بصفته مكوّنًا رئيسًا فيها؛ وبهذا تكون مهمة منشئ النص دقيقة، فأي خطأ قد يحدث بسبب التوظيف غير الدقيق للتاريخ فإن عواقب ذلك ستكون سلبية على النص السردي، ولهذا فـ"إن التصورات التي كان يتصورها كُتّاب الرواية التاريخية تختلف من روائي إلى آخر؛ فبينما نلفي مثلاً فكتور هيجو يتخذ من (الرجل الضاحك) أو (ثلاثة وتسعين)، مجالاً خصيبًا لتأويل الوقائع، وبسط الأيديولوجيات، وعرض الرموز والأساطير؛ بل نلفيه يتخذ منها إطارًا خياليًا منه يتفجر معنى الظاهرة الثورية"(١).

وتختلف طريقة تعاطي الروايات التاريخية مع التاريخ وفق ثلاثة مسارات كما يراها (جوزيف ترنر)؛ فنمط من الروايات تعمل على تلفيق الماضي واختراع بعض الأحداث التي لا تتصل به، وإنما يتصرف فيها منشئ النص وفق رؤية يريد أن يطرحها في السرد، وقد تكون له مبررات في هذا الأمر الذي يكون

(١) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الأستاذ الدكتور: عبدالملك مرتاض، الطبعة الأولى، الناشر: عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٤٠)، الكويت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣١.

الخيال شريكًا رئيسًا فيه، ونمط آخر تقوم الرواية التاريخية فيه بمهمّةٍ مغايرة للأولى لأنها تروي الماضي، لذا فإنها تنقل تفاصيل هذه الحقب التاريخية دون أي تصرف يخل بمضمونها، بينما تتبنى فئة من الروايات التاريخية طريقًا آخر تقوم الرواية فيه بتجديد التاريخ وبعثه من جديد ولكن بطريقة تتفق مع أهداف منشئ النص(١).

يدخل التاريخ إلى تفاصيل الحدث السردي في رواية دموع الرمل، ليكون الموجه الرئيس للأحداث في السرد، حيث يعتمد هذا العمل السردي على المصادر التي أرّخت للدولة السعودية الثالثة، ودوّنت أحداثها التاريخية في تلك المرحلة التي قادها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل –طيب الله ثراه– في مراحل توحيد المملكة العربية السعودية، وتطرق في هذه الرواية إلى الصعاب التي واجهها المؤسس في تلك الحقبة المهمة من تاريخ هذا الوطن، وهذه الأحداث إلى جانب أهميتها، وعِظم أثرها، وتوهج دلالتها، إلا أن الناس عرفوها وحفظوها؛ لأنها تعبّر عن تاريخهم ومستقبلهم وطموحهم، وبهذا تكون المهمة عسيرة أمام منشئ النص، فكيف سيوجه هذه الأحداث التاريخية لتكون في صُلب السرد ومداره، ليقدمها للمتلقين وكأنهم يقرؤونها للمرة الأولى، ويتابعون تفاصيلها بشغف، ولهذا فإن بناء الحدث يبعث قضيتين "الأولى تتصل بالمادة التاريخية التي تشكل مادة العمل الأدبي، والثانية تتمثل في أساليب صياغة هذه المادة، وربطها بالعنصر المتخيل في الرواية"(٢).

(١) انظر: الرواية العربية في مرحلة النهوض والتشكيل، الأستاذ الدكتور: محمد صالح الشنطي، الطبعة الأولى، الناشر: دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٥١،٢٥٢،٢٥٣.

(٢) الرواية العربية في مرحلة النهوض والتشكيل، الأستاذ الدكتور: محمد صالح الشنطي، ص٢٦٧.

يحضر الحدث التاريخي الأبرز في الرواية ليكون جوهر العمل وأساسه الذي يعتمد عليه، ويتجلى ذلك في حضور الحدث الأبرز في هذا الميدان وهو معركة البكيرية التي دارت رحاها بين الملك عبدالعزيز، وعبدالعزيز بن رشيد، ويتجلى ذلك في قول الراوي: "اقترب الجيش من البكيرية خلال أيام لم يحرص على أن يحسبها. خيموا قريبًا منها، وخيم جيش ابن سعود في الجهة المقابلة، غدًا ستكون المعركة لا محالة. يرى من بعيد جنود ابن سعود فيأسى لحالهم، قلة العتاد والرجال ليس في صالحه في هذه المعركة، ثم يعاود النظر إلى الجيش الذي هو في صفوفه، فيرى عددًا هائلاً من الجنود على استعداد كبير للمعركة بمعداتهم التي جاءت إمدادًا من الدولة العثمانية، صمت، غدًا سنعرف من يكون له الانتصار، من الواضح أن ابن رشيد استعد لهذه المعركة استعدادًا كبيرًا، وربما تقود هذه الاستعدادات إلى هزيمة ابن سعود"(١).

يحاول منشئ النص أن يوظف الحدث التاريخي بطريقة تُكسبه بُعدًا جديدًا يُكيِّف عناصره بحيث تندمج مع سياق الأحداث في الرواية، وهنا سعى الغيثي إلى صياغة هذا الحدث المؤثر على مستوى التاريخ والسرد بطريقة يرى أنها تُشكّل توازنًا بين بعدين في الحدث: تاريخي، ومتخيل، وهنا يجب أن يضبط منشئ النص طريقة حضور الحدث التاريخي ومكونات النص الأخرى خصوصًا الحبكة التي تكون مدارًا للأحداث، وميدانًا لبزوغها وأفولها، وهذه الوسيلة في بناء الحدث تُعد طريقةً فعّالة إذا أحسن منشئ النص توظيفها وتوجيهها بالطريقة الصحيحة التي تضبط اتزان الحدث التاريخي؛ فتحدد مساره في السرد، وفي هذا المقام يجب أن يستشعر منشئ النص أهمية ذلك، ليدرك أبعاد الصور الذهنية الموجودة في أذهان المتلقين لهذا الحدث التاريخي الذي يجب التعامل معه

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص٥٧.

بصورة تضعه في موقع متوسط بين الواقع والخيال، وهذا لا يتسق مع ما اتجه إليه منشئ النص عندما علق على هذا الحدث بلسان الراوي الذي قال: "من الواضح أن ابن رشيد استعد لهذه المعركة استعدادًا كبيرًا، وربما تقود هذه الاستعدادات إلى هزيمة ابن سعود"[١]، وهنا لم يوفق الغيثي في تقديم الحدث التاريخي بالطريقة التي تكفل التوازن بين بعده التاريخي وحضوره في السرد، لهذا يجب أن يستحضر منشئ النص جميع الظروف المحيطة بهذا الحدث الكبير الذي يَعرف المتلقون مبتدأه ومنتهاه ونتيجته وأثره، لذا لا يمكن دمجه مع النص السردي عن طريق تشتيت القيم الواقعية التي يعتمد عليها الحدث، فالخيال يجب أن يكون بمقدار لا يؤثر على بنية الحدث التاريخي وسياقه العام الذي يجب التعامل معه بأفق توازي محاوره الواقعية بحيث لا يتغلب عنصر الواقع على الخيال في النص، خصوصًا إذا كانت الرواية تاريخية، مع الأخذ بالاعتبار أن هناك فرقًا بين الخطاب السردي والخطاب التاريخي الذي يجب أن يُتعامل معه وفق تقاليد معينة تضبط حضوره وغيابه في السرد؛ فطبيعة "الحدث في الخطاب التاريخي واقعي، أما الحدث في الخطاب السردي فهو خيالي من إبداع الراوي، ومن ثمة فالراوي أكثر حرية من المؤرخ، كما أن المؤرخ أكثر واقعية من الراوي"[٢].

لقد استطاع منشئ النص استيعاب الحدث التاريخي، واستثماره لخدمة النص وضبط أبعاده، التي تمسك بزمام الأحداث في الرواية وتوجهها نحو الهدف الذي ينشده الغيثي، ولهذا وظف ما يملكه من أدوات وتقانات في توجيه هذه

---

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص٥٧.

(٢) السرد التاريخي عند بول ريكور، جنات بلخن، الطبعة الأولى، الناشر: دار الأمان، الرباط – منشورات الاختلاف، الجزائر – منشورات ضفاف، الرياض، بيروت، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص٤١،٤٢.

الوقائع التاريخية لخدمة السرد، وهذا ما يظهر في النص، يقول الراوي في وصف تفاصيل المعركة التي دارت بين جيش الملك عبدالعزيز والمتمردين الذين يقودهم فيصل الدويش: "حُسمت المعركة سريعًا، نصف نهار فقط وانتصر ابن سعود بقوته وذكائه وتجهيزاته وعدد جنوده، انتصر كما انتصر في كل معاركه التي وحّد بها البلاد من قبل، لم يبق إلا مجموعة قليلة من الهاربين من جيش الإخوان، قبضوا على الدويش وهو مصاب، عالجوه، ثم نقلوه إلى الرياض وهناك سجن بقية عمره.

اقترب عبد أبي سالم من الفتى، نظر إلى جثته الهامدة أمامه، حاول أن يعدّله على ظهره، فاعتدلت جثته وتمددت يداه يمينًا وشمالاً والدم ينتشر في كل مكان، نزلت دمعتان حارتان من عيني العبد:

ليه يا ضاري؟

بكى عليه حتى لم يعد للبكاء من نفع"(١).

وهنا يظهر تأثير الحدث التاريخي على سياق الأحداث في الرواية، وكيف استطاع منشئ النص أن ينقل مستوى تأثير هذا الحدث التاريخي الذي انطلق من رحم الواقعية إلى سماءات الخيال، الذي كيّف من خلاله مستوى حضور الحدث التاريخي إلى شرايين الأحداث الثانوية في الرواية، ولهذا لا نجد في هذا الموضع الذي ينقل لنا فيه الراوي هذه التفاصيل أي خلل يمكن أن يؤثر على تسلسل الأحداث، ومستوى حضورها في السرد، وهذه الحالة من التلاحم بين هذه المستويات، تكشف مدى استيعاب الغيثي للحدث التاريخي، وكما تكشف مدى الصلة الوثيقة بين الرواية والتاريخ؛ وهذا ما دفع "بالزاك على عد الرواية حليفًا

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٣٥.

للتاريخ"[١].

يؤثر الحدث التاريخي في رواية: دموع الرمل، ليقود بقية الأحداث في الرواية، إلا أن هناك شيئًا من الاضطراب في مسيرة توظيفه وبناء أبعاده في السرد، إلا أن استيعاب الغيثي للحدث التاريخي قد أثمر في توجيه هذا الحدث ودمجه مع بقية مكونات النص، ليكون توظيفه وفق مستوى معين، ورؤية تحقق الهدف الذي أنشأ من أجله النص.

(١) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الأستاذ الدكتور: عبدالملك مرتاض، ص٢٨.

المبحث الثالث: المفارقة الزمنية في بناء الحدث التاريخي:

من أبرز القضايا التي تواجه الحدث التاريخي، لتمثل عقبة كؤود تحول دون اندماجه مع بقية الأحداث في السرد: المفارقة الزمنية؛ التي تحاصر منشئ النص عند توظيف الحدث التاريخي وتوجيهه على مستوى النص، وهذا متوقع بسبب وجود الفاصل الزمني الذي يحول بين زمن الحدث التاريخي وزمن السرد، وهذا ما يجعل مهمة كتابة الرواية التاريخية عسيرة، وتتطلب قدرة على استيعاب الحدث، وضبط أبعاده، وتوقع ردة فعل المتلقي عليه ودمجه مع بقية الأحداث الأخرى على مستوى الرواية.

إن قدرة منشئ النص على استيعاب الحدث التاريخي وفهم أبعاده لا تلغي المفارقة الزمنية، وإنما تخففها لأنها تعني "التنافر بين ترتيب الأحداث"(١)، ويختلف مستوى هذه المفارقة في السرد، فقد تكون صريحة أو ضمنية، وفي كلا الحالتين فإن أثرهما واحد في النص، وسببها يعود إلى "كون زمنية الخطاب أحادية البعد، أما زمنية الحكاية فمتعددة الأبعاد"(٢)، ولهذا لا يمكننا أن نفصل بين هذين الزمنين، فالحدث التاريخي الذي حضر في السرد يفيد أنه قد حصل قبل ذلك، ودمجه مع بقية الأحداث الأخرى يتطلب مهارة فنية، لأن هذه الأحداث المتباينة لا يمكن أن تكون متتالية في الزمن؛ فعملية المواءمة بينها، ودمجها في سبك واحد متماسك عملية معقدة تتطلب جَلدًا، وخبرة فنية لدى منشئ النص.

---

(١) معجم السرديات، إشراف: الأستاذ الدكتور: محمد القاضي، تأليف: الدكتور: محمد الخبو، الدكتور: أحمد السماوي، الدكتور: محمد نجيب العمامي، الدكتور: علي عبيد، الأستاذ الدكتور: نور الدين بنخود، الدكتور: فتحي النصري، الدكتور: محمد آيت ميهوب، الطبعة الأولى، الناشر: الرابطة الدولية للناشرين المستقلين – دار محمد علي، تونس، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٣٩٩.

(٢) معجم السرديات، إشراف: الأستاذ الدكتور: محمد القاضي، ص٣٩٩.

ترسم رواية: (دموع الرمل)، لوحةً فنية مترامية الأطراف؛ لأنها تحكي عن حقبة مهمة من تاريخ بلادنا المضيء، لتعكس مسيرة التوحيد التي خاضها المؤسس –رحمه الله–، فتروي أحداثًا دقيقة منها تمرد الإخوان على الحكم السعودي الرشيد، لتقف الرواية على التفاصيل الصغيرة في تلك المرحلة، حيث تروي حكاية أسرة بدوية صغيرة كانت ترقب هذه الأحداث الكبرى، لتبيّن آلية تعاطي شخصيات الرواية: نوير، وأبوها، وابنها ضاري مع هذه الأحداث المؤثرة التي نسجت تاريخ وطننا ومستقبله.

يعتمد منشئ النص في بناء الأحداث على نسقين: الأول: نسق التتابع التاريخي، والثاني: نسق التضمين، ليكون بناء الحدث التاريخي في هذه الرواية على أكثر من نسق، حيث تتكامل هذه الأنساق من أجل ضبط المفارقة التي قد تحدث بسبب اختلاف الزمن، وأول ما يطالعنا في هذه الرواية هو نسق التتابع التاريخي الذي يعتمد عليه الكاتب في تكوين البناء السردي العام للنص، وهذه التراتبية في تقديم الأحداث في الرواية، نسق تعتمد عليه الروايات في العموم، والرواية التاريخية بالخصوص، ولذا فهذا النسق يُعد "من أهم الأنساق البنائية وأقدمها"(١)، وأكثرها شيوعًا في الأعمال السردية، وحضوره في الرواية يستلزم آلية محددة يسير عليها منشئ النص، ورواية: دموع الرمل، يقوم بناء الأحداث فيها على نسق التتابع الذي يعتمد على تقديم "أحداث القصة جزءًا بعد آخر، مرتبة حسب تسلسل وقوعها، دون أن يفصل بينها فاصل، لذلك يعد هذا النسق من أكثر الأنساق قربًا من الحكاية"(٢).

(١) النص السيري والنص التاريخي سيرة سيف بن ذي يزن دراسة سردية موازنة، وسن رحيم المذخوري، الطبعة الأولى، الناشر: مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م، ص١٣٨.

(٢) البناء الفني في الرواية السعودية، الأستاذ الدكتور: حسن حجاب الحازمي، الطبعة الأولى، (د.ن)، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٧٨.

تَتَبَّع رواية: دموع الرمل، مراحل تشكّل المملكة العربية السعودية، لتلقي الضوء على أصغر لبنة في هذا المجتمع الكبير الذي تحتضنه صحراء نجد التي كانت بداية انطلاقة مسيرة التوحيد والبناء، وكيف كانت ثم كيف أصبحت، لترصد ملامح تكوّن هذا الوطن عبر عدسة عيني الطفلة اليتيمة نوير التي لم يترك لها أبوها من الصحراء إلا ذكريات شحيحة نبعت من قلب هذه الفيافي الضامرة، وكيف كانت الحروب تسرق أحبابهم دون أيشعروا، فلا تبقي لمحبوبيهم إلا ذكرى حزينة، لينطلق محور الأحداث في الرواية عبر التحاق والد نوير بجيش ابن رشيد، وكانت هذه الحرب التي قادها المتمرد ابن رشيد هي بداية مأساة بطلة الرواية التي اضطرت للزواج من أبي سالم، لعدم وجود من يعيلها بعد خوض والدها الحرب، يقول أبوسالم: "والله مالي بك حاجة يا نوير لولا وصية أبيك عليك قبل أن يذهب مع جيش ابن رشيد"(١)، لتدور عجلة الأحداث في السرد حتى بعد أن كان والد نوير يصطلي بلظى الحرب التي أسعر نارها ابن رشيد، وكيف كان يتتبع هذا الرجل المسن أخبار الملك المؤسس عبدالعزيز بداية انطلاقته، ليرصد تقدمه بقوة وثبات، لتجتاح روح الإعجاب قلب أبي نوير، خصوصًا بعد أن أثار وجود الجنود العثمانيين في جيش ابن رشيد استياء هذا الرجل المسن، الذي كان يرقب تقدم الملك عبدالعزيز، وفي خضم هذه الأحداث الكبرى تزوجت نوير من أبي سالم، ثم أنجبت ولدها ضاري، الذي كَبُر وبدأ يسير إلى الهلاك بقدميه! فكان الشاب يستمع من صديقه عبد أبي سالم عن حكاية انتصار المؤسس على ابن رشيد في معركة روضة مهنا، وحكاية فتح الرياض، وبعد استقرار الأمر للملك عبدالعزيز بدأت التنمية والتعليم تنهض في المملكة الفتية، إلا أن بعض المتمردين ما زالوا يحاولون تقويض هذه النجاحات، التي

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص٢٧.

عبر عنها الراوي بحركة الإخوان وتمردهم، ليسرد قصة انضمام ضاري معهم! الذي كانت نهايته الموت مع هذه الفئة الضالة يقول: "اقترب عبد أبي سالم من الفتى، نظر إلى جثته الهامدة أمامه، حاول أن يعدله على ظهره، فاعتدلت جثته، وتمددت يداه يمينًا وشمالاً والدم ينتشر في كل مكان، نزلت دمعتان حارتان من عيني العبد: ليه يا ضاري، ليه"(١).

يحكي هذا الحدث قصة القضاء على حركة الإخوان المتمردة، وإنهاء وجودها، وبذلك تكتمل مراحل تكوّن الدولة السعودية الثالثة التي ضمّت في بنائها فصول تلك الأحداث، ليشمل ذلك المراحل الزمنية المختلفة خلال تلك المدة، من خلال معالجة زمنية متوازنة عبر نسق التتابع التاريخي الذي سارت فيه الأحداث في خط منتظم، فلم نشعر في السرد بالفارق الذي يفصل بين زمننا وزمن الرواية.

اعتمدت رواية: (دموع الرمل)، على نسق التتابع التاريخي ليكون النسق الرئيس في بناء الأحداث، أما نسق التضمين فقد استعان به منشئ النص على دمج الأحداث الصغرى داخل الحدث الرئيس وهو حكاية توحيد المملكة العربية السعودية وبنائها، وهذه إحدى المطالب المهمّة للرواية، ولذا فإن "استخدامها أو استعانتها بهذا النسق لا يأتي لملئ فراغ العمل ولا لتأجيل نهاية القصة كما هو الحال في الحكايات الشعبية، وإنما يأتي لأغراض فنية ومضمونية ذكرها النقاد ومنها: إضفاء الحيوية على السرد، وإحداث بعض التنويع في داخله"(٢)، ويَبرز هذا النسق بوضوح في الرواية عندما تنمو قصة صغيرة في كنف قصة كبرى وهي حكاية توحيد المملكة وبنائها في طورها الثالث، لتولد قصة أخرى ثانوية من رحم القصة الأساس وهي قصة نوير التي ولدت في قلب صحراء

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٣٥.

(٢) البناء الفني في الرواية السعودية، الأستاذ الدكتور: حسن حجاب الحازمي، ص٨٥.

المملكة، وعايشت تفاصيل توحيدها، يقول الراوي: "مات أبوها في معركة البكيرية مع عدد ممن مات من المشاركين في جيش حائل، هي مازالت تشكك أن أباها فارس، ولا يمكن أن يُقتل هكذا في معركة!

لها أخوان اثنان: واحدٌ غادر البلاد إلى العراق في إحدى الرحلات ولم يعد"(١).

يعكس هذا النص رحلة الغيثي مع نسق التضمين، الذي وظّفه من أجل غرس قصة أخرى تسير بهدوء داخل خضم الأحداث الكبرى في السرد، وهي قصة نوير وأبيها وزوجها وابنها ضاري، لتكون كيانًا مستقلاً داخل السرد ولكنه نسق داخلي متصل، فقصة نوير قصة "ناشئة من القصة الأصلية نفسها، وذات علاقة بها"(٢)، وارتباطها وثيق بالحكاية الأساس التي تقوم عليها الرواية، وهنا استطاع الغيثي أن يثبت قدرته على تضمين هذه القصة بالقصة الكبرى دون أن يشعر المتلقي بالفارق بين القصتين وهنا تكمن مهارة منشئ النص في الربّط والمواءمة، حيث نجح بدمج القصتين في قصة واحدة، ونستطيع أن نستدل على ذلك عبر مراجعتنا لوحدة المكان والزمان، فالشخصيات والأحداث يجمعها زمان ومكان واحد، فهي من المجتمع النجدي، والأحداث دارت في هذه المنطقة الأم، حتى النهاية التي ختمت القصتين، وهي وفاة ولد نوير ضاري مع جيش المتمردين الإخوان(٣)، وتحرير عبد أبي سالم من عبوديته، التي عبر عنها الراوي بقوله: "زارها أبوسالم في ليلتها الأربعين ليرى طفلته حديثة الولادة، فسماها:

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٨.

(٢) البناء الفني في الرواية العربية في العراق، الأستاذ الدكتور: شجاع مسلم العاني، الطبعة الأولى، الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة بجمهورية العراق، بغداد، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٣٢.

(٣) انظر: دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٣٥.

(وضحى)، لبياضها الذي بات فارقًا عن كل أطفال العشيرة الذين ولدوا قريبًا من ولادتها، وقبيل أن يغادر طلبت منه نوير أن يحرر العبد، لقد وعدته إن عاد ولدها إليها أن تحرره"[١]، وهنا تظهر قدرة منشئ النص على دمج هاتين القصتين في قصة واحدة فكلاهما ينتهيان في توقيت واحد، فبعد قضاء الملك عبدالعزيز على حركة الإخوان، تنتهي حكاية الحروب وهنا أيضًا يهلك ضاري مع جيش الإخوان، وعلى الجانب الآخر تبدأ المملكة رحلتها في بناء نهضتها وصناعة مستقبلها وعندئذٍ تختفي رائحة الموت، وتنتشر ينابيع الحياة التي كنّى عنها منشئ النص بولادة وضحى ابنة نوير، وتحرير عبد أبي سالم، فهاتان القصتان انتهتا في قصة واحدة[٢].

لقد استطاع شتيوي الغيثي أن يتغلب على المفارقة الزمنية التي حدثت في السرد، بسبب حسن توظيفه للحدث التاريخي وتوجيهه على مستوى السرد، وهذا متوقع بسبب وجود الفاصل الزمني الذي يحول بين زمن الحدث التاريخي وزمن السرد، حيث بنى الكاتب روايته: دموع الرمل، على نسقين الأول: نسق التتابع التاريخي، والثاني: نسق التناوب.

(١) دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، ص١٤٤.

(٢) انظر: البناء الفني في الرواية السعودية، الأستاذ الدكتور: حسن حجاب الحازمي، ص٨٦.

الخاتمة

درست في هذا البحث استدعاء التراث في الرواية التاريخية السعودية، لتكون رواية: دموع الرمل، هي نموذج الدراسة، واستعنت بآليات المنهج الإنشائي في البحث والتحليل، لألقي الضوء على علاقة التراث بكل ما يحمله من أبعاد ودلالات بالرواية التاريخية، ولأبحث في آليات استدعاء الشخصيات التاريخية في الرواية، إلى جانب بحثي في تفاصيل توظيف التاريخ في الحدث السردي، لأختم الدراسة بالبحث في المفارقة الزمنية التي حدثت عند بناء الحدث التاريخي، وبعد البحث والتحليل وصلت الدراسة إلى نتائج عدة هي:

أن الإلمام بالتراث ليس كافيًا لكتابة الرواية التاريخية؛ فيجب أن يرافق هذا الاهتمام والإلمام بالتاريخ إدراك لأبعاد التراث، ومعرفة الطريقة المناسبة لتوظيفه داخل العمل السردي؛ لذا فهو سلاٌح ذو حدين، فقد يكون سلبيًا إذا لم يحسن منشئ النص استثماره بالشكل المناسب ليكون مُثريًا للرواية.

ظهرت لي علاقة شتيوي الغيثي بالتراث، وصلته الوثيقة بالتاريخ الوطني، فكانت هذه الصلة محفزًا رئيسًا للكاتب على بث هذه التجربة في عمل سردي برزت لي آثاره وأبعاده وسماته بعد هذه الدراسة.

بيّن هذا البحث أهمية الدقة في اختيار الشخصيات التاريخية في ميدان الرواية التي تستلزم حضور أحداث واقعية ممزوجة بأبعاد تاريخية مؤثرة، وهنا تبرز مهارة منشئ النص في توظيف حضور هذه الشخصيات والموازنة بين الخيال وواقع هذه الأحدث التاريخية، ومهمّة هذه الشخصيات التاريخية فيها؛ وهذا ما يكشف سبب انتقاء الغيثي لشخصيات معينة في تاريخ الدولة السعودية الثالثة.

تبرز في رواية: دموع الرمل، أهمية عنصر الخيال في صناعة مادة الرواية التاريخية، وتأثير ذلك في سياق السرد، من أجل المواءمة بين الحضور التاريخي، والأفق التخييلي الذي يدمج من خلاله منشئ النص التراث بالعمل السردي.

كشفت الدراسة وجود شيء من الاضطراب في توظيف بعض الأحداث التاريخية في الرواية، بسبب عدم استيعاب الكاتب لبعض أبعاد الأحداث، فلم يكن توظيفها بالشكل الذي يتناسب مع الحدث، وبما يتسق مع بقية مكونات النص، وهذا ما دفع الغيثي لتدارك ذلك وتجنبه في بقية مواضع الرواية.

بيّنت الدراسة أن منشئ النص اعتمد في بناء الأحداث على نسقين: الأول نسق التتابع التاريخي، والثاني: نسق التضمين، ليكون بناء الحدث التاريخي في هذه الرواية على أكثر من نسق؛ لتتكامل هذه الأنساق من أجل ضبط المفارقة الزمنية التي قد تحدث بسبب اختلاف الزمن.

أضاءت الرواية المراحل المهمّة في تكوّن الدولة السعودية الثالثة حيث استطاع الغيثي أن يتغلب على المفارقة الزمنية التي حدثت في السرد؛ بسبب حسن توظيفه للحدث التاريخي وتوجيهه على مستوى السرد باستثناء مواضع معينة أشرت إليها في الدراسة.

كشفت الدراسة أن توظيف الشخصيات التاريخية في الرواية، كان عبر ثلاثة أنماط: الأول: استدعاء الشخصية التاريخية بالاسم، والثاني: استدعاء الشخصية التاريخية عبر أقوالها، والثالث: استدعاء الشخصية التاريخية عبر أفعالها، وبهذا يتضح أن استدعاء هذه الشخصيات في ميدان السرد كان وفق قواعد التزم بها الغيثي ليتأكد من فعالية حضور هذه الشخصيات التاريخية في الرواية، وليضمن تفاعلها مع الأحدث، ومع الشخصيات الأخرى لتدعم حبكة النص.

توصي الدراسة ببحث الروايات التاريخية السعودية خصوصًا في الجوانب التي تتصل بحضور الشخصيات، والأحداث التاريخية، وإلقاء الضوء على آليات توظيفها في الروايات التاريخية السعودية، حيث صدرت مؤخرًا مجموعة من الروايات في هذا الميدان وهي أعمالٌ جديرة بالدراسة والاهتمام، وتناولها بالبحث سيكون سببًا في تطويرها وسيفتح آفاقًا جديدة أمام الكتّاب من أجل زيادة نتاجهم في هذا النمط الروائي.

ثبت المصادر والمراجع

استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الدكتور: علي عشري زايد، الطبعة الأولى، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

البناء الفني في الرواية السعودية، الأستاذ الدكتور: حسن حجاب الحازمي، الطبعة الأولى، (د.ن)، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، محمد رياض وتار، الطبعة الأولى، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

دموع الرمل، الدكتور: شتيوي الغيثي، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، الناشر: دار تشكيل، ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م.

الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (دراسة في البنية السردية) ١٩٣٩م – ١٩٦٧م، الدكتور: حسن هندي سالم إسماعيل، الطبعة الأولى، الناشر: دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٥م.

انظر: الرواية التاريخية في الأدب العربي السعودي الحديث، الأستاذ الدكتور: علي بن محمد الحمود، الطبعة الأولى، (د.ن)، الرياض، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (دراسة تطبيقية)، الدكتور: حلمي محمد القاعود، الطبعة الثانية، الناشر: العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

الرواية العربية في مرحلة النهوض والتشكيل، الأستاذ الدكتور: محمد صالح الشنطي، الطبعة الأولى، الناشر: دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، الأستاذ الدكتور: سعيد يقطين، الطبعة الأولى، الناشر: المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار

البيضاء، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

السرد التاريخي عند بول ريكور، جنات بلخن، الطبعة الأولى، الناشر: دار الأمان، الرباط – منشورات الاختلاف، الجزائر – منشورات ضفاف، الرياض، بيروت، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

سميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، ترجمة سعيد بنكراد، تقديم: عبدالفتاح كيليطو، الطبعة الأولى، الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الأستاذ الدكتور: عبدالملك مرتاض، الطبعة الأولى، الناشر: عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ٢٤٠)، الكويت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

معجم السرديات، إشراف: الأستاذ الدكتور: محمد القاضي، تأليف: الدكتور: محمد الخبو، الدكتور: أحمد السماوي، الدكتور: محمد نجيب العمامي، الدكتور: علي عبيد، الأستاذ الدكتور: نور الدين بنخود، الدكتور: فتحي النصري، الدكتور: محمد آيت ميهوب، الطبعة الأولى، الناشر: الرابطة الدولية للناشرين المستقلين – دار محمد علي، تونس، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

النص السيري والنص التاريخي سيرة سيف بن ذي يزن دراسة سردية موازنة، وسن رحيم المذخوري، الطبعة الأولى، الناشر: مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.